التَّخْصِيصُ بِالنَّعْتِ فِي كِتَابِ (كَامِلِ الزِّيَارَاتِ)

الأستاذ الدكتور
هاشم جعفر حسين الموسوي
جامعة بابل. كلية التربية للعلوم الإنسانية
hashimhashimjaafar@gmail.com
الباحث
أسعد عقيل شهاب المُحنا
مديرية تربية بابل
asaadalmhana@gmail.com

Personalization in the book (KAMEL AL-ZEYARAT)

Prof. Dr.
hashim jaafar hussein
University of Babylon. College of Education for Human
Researcher
Assad Aqeel Shihab
Directorate Education Babil

الملخص:-

هَذَا البَحْثُ يَدْرُسُ الصِّفَةَ كَوَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ التَّخْصِيصِ، وَمُفَادُ التَّخْصِيصِ إِنَّمَا هُوَ عِنَايَةُ المُتَكَلِّمِ بِمَعْنًى يُرَتِّبُ عَلَيْهِ أَجْزَاءَ الكَلَامِ عَلَى نَمَطٍ مُعَيَّنٍ وَأَدَوَاتٍ لُغَوِيَّةٍ مَعْلُومَةٍ، لِيُنَبِّهَ أَذْهَانَ المُتَلَقِّينَ عَلَى أَنَّ هَذَا المَعْنَى لَهُ حَظْوَةٌ عِنْدَهُ. وَفِي الصِّفَةِ النَّكِرَةِ مَوْصُوفُهَا، يَمْكُثُ البَحْثُ عِنْدَ مَا تُعْطِيهِ تِلْكَ الصِّفَةُ مَوْصُوفَهَا مِنْ تَخْصِيصٍ. وَكِتَابُ (كَامِلِ الزِّيَارَاتِ) لِابْنِ قُولَوَيْهِ القُمِّيِّ (ت: ٣٦٧ هـ) أَرْضٌ خِصْبَةٌ لِدِرَاسَةٍ كَهَذِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَقْدَمِ مَصَادِرِ الحَدِيثِ عِنْدَ الإِمَامِيَّةِ وَأَوْثَقِهَا سَنَدًا وَمَضْمُونًا.

وَكَوْنُ كَلَامِ أَهْلِ بَيْتِ العِصْمَةِ مَادَّةً لِلدِّرَاسَةِ؛ دَافِعٌ كَبِيرٌ لِلبَاحِثِ عَلَى التَّعَمُّقِ فِي التَّحْلِيلِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ مَعْصُومٌ مَقْصُودَةٌ كُلُّ كَلِمَةٍ فِيهِ. وَقَدْ دَنَتْ لِلبَاحِثِ مِنْ هَذَا البَحْثِ قُطُوفٌ مِنْهَا: اكْتِسَابُ الصِّفَةِ المَصْدَرِ التَّخْصِيصَ مِنْ مَوْصُوفِهَا؛ لِتَكُونَ العَلَاقَةُ بَيْنَ المَوْصُوفِ وَصِفَتِهِ المَصْدَرِ تَبَادُلَ اخْتِصَاصٍ.

الكلمات المفتاحية: لنحو، كامل الزيارات، التخصيص، النعت، التخصيص بالنعت.

Abstract:-

This study examines the adjective as a means of personalization, and the meaning of the specialty is the attention of the speaker in a sense arranged by the parts of speech on a certain pattern and tools language known, to alert the minds of recipients that this meaning is favored. In the negative character described, the research remains when it is given that attribute described by the allocation. And the book (Kamel AL-ZEYARAAT) Ibn Qulwaih al-Qami (T: 367 e) fertile ground for such a study; because it is one of the oldest sources of talk at the Imamiyah and the most reliable support and content.

And the fact that the words of the people of the House of Essma material for study; a great motivation for the researcher to deepen the analysis, because it is infallible speech intended every word in it. The researcher has been guided by this research, including: the acquisition of the adjective source of customization of its descriptions; to be the relationship between the prescribed and described as the source of exchange of competence.

key words: Allocating, Adjective, Kamel al-Zeyarat.

تَوْطئَةٌ:

النَّعْتُ ((لَفْظٌ يَتْبَعُ الاسْمَ المَوْصُوفَ، تَحلِيَةً لَهُ، وَتَخْصِيصًا مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ اسْمِهِ، بِذِكْرِ مَعْنًى فِي المَوْصُوفِ، أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْ سَبَبِهِ))[١].

وَهُوَ حَدٌّ دَقِيقُ العِبَارَةِ كَمَا نَرَى، لا يَبْعُدُ عَنْهُ مَا نَبَّهَ عَلَيْهِ قَوْلُ ابْنِ يَعِيشَ فِي النَّعْتِ إِنَّهُ ((لَفْظٌ يَتْبَعُ الاسْمَ المَوْصُوفَ فِي إِعْرَابِهِ؛ تَحلِيَةً وَتَخْصِيصًا لَهُ بِذِكْرِ مَعْنًى فِي المَوْصُوفِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْ سَبَبِهِ، وَذَلِكَ المَعْنَى عَرَضٌ لِلذَّاتِ لَازِمٌ لَهُ))[٢]. وَلَنَا مَعَ هَذَيْنِ الحَدَّيْنِ ثَلاثُ وَقَفَاتٍ:

الأولى: بَيَانُ عَلاقَةِ المَوْصُوفِ بِصِفَتِهِ، وَهِيَ عَلاقَةُ الجَوْهَرِ بِعَرَضِهِ اللازِمِ لَهُ، كَمَا مَرَّ فِي قَوْلِ ابْنِ يَعِيشَ قَبْلَ قَلِيلٍ، وَهَذِهِ المُلازَمَةُ تُعَلِّلُ تَبَعِيَّةَ الصِّفَةِ مَوْصُوفَهَا فِي الإِعْرَابِ، فَفِي مِثْلِ قَوْلِهِمْ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ ظَرِيفٍ، تَابَعَ النَّعْتُ مَنْعُوتَهُ فِي الجَرِّ؛ ((لِأَنَّهُمَا كَالاسْمِ الوَاحِدِ. وَإِنَّمَا صَارَا كَالاسْمِ الوَاحِدِ؛ مِنْ قِبَلِ أَنَّكَ لَمْ تُرِدِ الوَاحِدَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَجُلٌ، وَلَكِنَّكَ أَرَدْتَ الوَاحِدَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَجُلٌ ظَرِيفٌ))[٣]. وَهَذَا بَيَانٌ مَنْطِقِيٌّ لِلْمُلازَمَةِ وَجِهَتِهَا نَضَحَ بِهِ إِنَاءُ سِيبَوَيْهِ، لَهُ أَثَرُهُ فِي التَّحْلِيلِ وَاسْتِنْبَاطِ الدَّلالَةِ كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَالصِّفَةُ لا تَكُونُ أَخَصَّ مِنَ المَوْصُوفِ، [٤] فَـ (الجَالِسُ) أَعَمُّ مِنْ (عَلِيٍّ) فِي قَوْلِنَا: سَلَّمْتُ عَلَى عَلِيٍّ الجَالِسِ، وَإِنَّمَا لَمْ تُخْرِجِ الصِّفَةُ مَوْصُوفَهَا إِلَى العُمُومِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهَا أَعَمَّ مِنْهُ؛ لِأَنَّ ((هَذَا كَانَ يَكُونُ وَاجِبًا لَوْ ذُكِرَ الوَصْفُ وَحْدَهُ)).[٥] ذَلِكَ أَنَّ الوَصْفَ لَوْ ذُكِرَ وَحْدَهُ، لَكَانَ أَعَمَّ مِنَ المَوْصُوفِ وَحْدَهُ وَمِنَ المَوْصُوفِ وَصِفَتِهِ مُجْتَمِعَيْنِ[٦].

الثانية: بَيَانُ دَلَالَةِ النَّعْتِ وَجِهَةِ الاحْتِيَاجِ إِلَيْهِ، فَظَاهِرُ هَذَيْنِ الحَدَّيْنِ أَنَّ أَهَمَّ دَلالَةٍ فِي النَّعْتِ التَّخْصِيصُ، وَمَعْنَاهُ هُنَا التَّفْرِيقُ بَيْنَ المُشْتَرَكَاتِ؛ كَمَا يَظْهَرُ مِنْ صَرِيحِ قَوْلِ ابْنِ جِنِّي فِي حَدِّهِ المَذْكُورِ أَوَّلًا: (وَتَخْصِيصًا مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ اسْمِهِ). بَلْ إِنَّ ابْنَ السَّرَّاجِ جَعَلَ هَذِهِ الدَّلالَةَ حَدًّا لِلنَّعْتِ فَقَالَ: ((وَالصِّفَةُ: كُلُّ مَا فَرَّقَ بَيْنَ مَوْصُوفَيْنِ مُشْتَرَكَيْنِ فِي اللَّفْظِ))[٧].

وَالأَصْلُ فِي الصِّفَةِ أَنْ تُوصَفَ بِهَا النَّكِرَةُ لا المَعْرِفَةُ؛ ((لِأَنَّ المَعْرِفَةَ كَانَ حَقُّهَا أَنْ تَسْتَغْنِيَ بِنَفْسِهَا، وَإِنَّمَا عَرَضَ لَهَا ضَرْبٌ مِنَ التَّنْكِيرِ فَاحْتِيجَ إِلَى الصِّفَةِ))[٨]، لِذَلِكَ قَالُوا إِنَّ غَرَضَ

النَّعْتِ ((إزَالَةُ اشْتِراكٍ عارِضٍ في المَعْرِفَةِ))،[٩] وهُوَ المُعَبَّرُ عَنْهُ بالتَّوْضيحِ[١٠].

عَلى حينِ أَنَّ النَّكِرَةَ هِيَ المُسْتَحقَّةُ للصِّفات؛ للتَّقَرُّبِ منَ المَعارِف؛ وتَقَعُ بِها حينَئذٍ الفَائدَةُ، فالصِّفَةُ تُقَرِّبُ النَّكِرَةَ منَ المَعْرِفَةِ؛ بإفَادَتِها إيَّاها مَعْنَى التَّخْصِيصِ[١١]، المُفيدِ تَقْليلَ العُمُومِ وتَقْصيرَ مَداهُ[١٢].

الثالثة: بَيَانُ نَوْعَيِ النَّعْتِ منْ حَيْثُ طَبيعَةُ العَلاقَةِ مَعَ المَنْعُوت، فَمَا كانَ مُتَعَلِّقًا ((بذِكْرِ مَعْنًى في المَوْصُوفِ))[١٣] نَفْسِه؛ فَهُوَ النَّعْتُ الحَقِيقِيُّ.[١٤] أَمَّا إذَا تَعَلَّقَ ((في شَيْءٍ منْ سَبَبِه))[١٥]؛ سُمِّيَ نَعْتًا سَبَبِيًّا[١٦].

وَالكَلامُ هُنا على أَرْبَعَةِ مَطالِبَ:

المَطْلَبُ الأوَّلُ

النَّعْتُ بالمَصْدَرِ

وَرَدَ النَّعْتُ مُشْتَقًّا في كاملِ الزِّيارات - والكَلامُ على نَعْتِ النَّكِرَةِ خَاصَّةً - في مَوَاضِعَ عدَّةٍ، ولَمْ يَأْتِ مَصْدَرًا جامداً إلَّا نَعْتًا وَاحِدًا تَكَرَّرَ مُلَازِمًا مَنْعُوتَهُ في سِياقِ بَيانِ أَجْرِ بَعْضِ الأَعْمال:

فَهَا هِيَ الصِّفَةُ (عَدْل) تُلَازِمُ مَوْصُوفَها (إمام) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ في حَديثٍ وَاحِدٍ يَسْأَلُ أَحَدُهُمْ فِيهِ الإمامَ الصَّادِقَ عَنْ شُخُوصِه إلى حَضْرَةِ سَيِّدِ الشُّهَداءِ يَوْمَ عَرَفَةَ؛ لتَعَذُّرِ وُقُوفِه بعَرَفَاتٍ يَوْمَها، فَيَسْتَحْسِنُ (صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْه) عَمَلَهُ وَيَقُولُ: ((أَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَتَى قَبْرَ الْحُسَيْنِ عليه السلام، عَارِفاً بِحَقِّهِ في غَيْرِ يَوْمِ عِيدٍ؛ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عِشْرِينَ حِجَّةً وَعِشْرِينَ عُمْرَةً مَبْرُورَاتٍ مُتَقَبَّلَاتٍ، وَعِشْرِينَ غَزْوَةً مَعَ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ إِمَامٍ عَدْلٍ، وَمَنْ أَتَاهُ فِي يَوْمِ عِيدٍ؛ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِئَةَ حِجَّةٍ وَمِئَةَ عُمْرَةٍ وَمِئَةَ غَزْوَةٍ مَعَ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ إِمَامٍ عَدْلٍ، وَمَنْ أَتَاهُ يَوْمَ عَرَفَةَ عَارِفاً بِحَقِّهِ؛ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ حِجَّةٍ وَأَلْفَ عُمْرَةٍ مُتَقَبَّلَاتٍ وَأَلْفَ غَزْوَةٍ مَعَ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ إِمَامٍ عَدْلٍ))[١٧].

وَالكَلامُ في تَحْليلِ هَذَيْنِ المُتَلازِمَيْنِ مُتَرابِطٌ، يَتَطَلَّبُ تَفْقِيراً لأَجْزَائِه كَمَا يَأْتي:

١- إنَّ ثَمَّةَ دَلَالَةً تَحْمِلُها نُدْرَةُ الوَصْفِ بالمَصْدَرِ في كاملِ الزِّيارات، لا تَتَجَلَّى إلَّا بَعْدَ مُلَاحَظَةِ أَقْوالِ النَّحْوِيِّينَ في دَلَالَةِ هَذَا الوَصْف.

٢- إنَّ للنَّحويِّين كَلَامًا مُهمًّا في دَلَالَة الوَصْف بالمَصْدَر، خُلَاصَتُهُ المُبالَغَةُ وكَوْنُ الوَصْف عَيْنَ مَوْصُوفه،[١٨] مِنْ ذَلِكَ ما اختارَهُ الرَّضِيُّ بَعْدَ نَقْله القَوْلَ بحَذْف المُضَاف: ((وَالأَوْلَى أَنْ يُقَالَ: أُطْلِقَ اسْمُ الحَدَث على الفاعِل وَالمَفْعُول مُبَالَغَةً، كَأَنَّهُما مِنْ كَثْرَة الفَعْل تَجَسَّمَا منْهُ))[١٩]، وكَأَنَّ المَوْصُوفَ تَشَبَّعَ بِصِفَتِه؛ حَتَّى صَارَ ((المَوْصُوفُ ذَلِكَ المَعْنَى؛ لِكَثْرَة حُصُولِه منْهُ))[٢٠].

٣- لا يَتَّضِحُ مَعْنَى ما ذَكَرَهُ أَهْلُ النَّحْو مِنْ تَجَسُّد الصِّفَة في مَوْصُوفها إذَا كانتْ مَصْدَرًا، إلَّا بالرُّجُوع إلى ما ذَكَرَهُ ابْنُ جني؛ حينَ بَيَّنَ أَنَّهُ ((إذَا وُصِفَ بالمَصْدَر صَارَ المَوْصُوفُ كَأَنَّهُ في الحَقِيقَة مَخْلُوقٌ مِنْ ذَلِكَ الفِعْلِ... وهَذَا مَعْنًى لا تَجِدُهُ وَلَا تَتَمَكَّنُ منْهُ مَعَ الصِّفَة الصَّرِيحَة))[٢١].

فَالصِّفَةُ تَقَدَّمَ أَنَّها عَرَضٌ في مَوْصُوفِها مُلازِمٌ لَهُ؛ وإذَا كانَ الوَصْفُ بالمَصْدَر دَالًّا على شِدَّة مُلازَمَة الصِّفَة مَوْصُوفَهَا وتَلَبُّسِ الأَخِير بِها؛ فَلَيْسَ ثَمَّةَ فَرْقٌ وَاسِعٌ بَيْنَ الوَصْف بالمَصْدَر والصِّفَة الصَّرِيحَة؛ لما تَقَدَّمَ مِنْ نُزُول الصِّفَة وَالمَوْصُوف مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ الواحد، أَمَّا مَعَ القَوْل إنَّ الوَصْفَ بالمَصْدَر يَكُونُ حَيْثُ كانَ المَوْصُوفُ مَخْلُوقًا على ذاكَ الوَصْف مَجْبُولًا عَلَيْه؛ فَيَتَّضِحُ حِينَئِذ مَدَى الفَرْق بَيْنَ الوَصْفَيْن وَسَبَبُ قِلَّة الوَصْف بالمَصْدَر، وَلا سِيَّما في كامِل الزِّيارات؛ حَيْثُ كَلامُ أَهْلِ البَيْت الذينَ لَمْ يَصِفُوا بالمَصْدَر إلَّا حَيْثُ كانَ المَوْصُوفُ مَجْبُولًا على صِفَتِه حَقِيقَةً، لا مُبَالَغَةً وَلَا تَشْبِيهًا.

٤- وَبِذَلِكَ تَتَمَحَّضُ دَلَالَةُ الوَصْف بالمَصْدَر للاخْتِصَاص.[٢٢]

٥- وبِمُلَاحَظَة ما تَقَدَّمَ كُلِّه، وَلَا سِيَّمَا ما مَرَّ في البَنْدَيْن السَّابِقَيْن؛ يَتَبَيَّنُ أَنَّ المَفْهُومَ مِنْ عِبارَة (إمام عَدْل) هُوَ الإمامُ المَعْصُومُ، وهِيَ نَتِيجَةٌ تَتَّكِئُ على مُقَدِّمات:

الأولى: سَبَقَ أَنَّ الصِّفَةَ ومَوْصُوفَها يَنْزِلانِ مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ الواحد؛ لِأَنَّ الصِّفَةَ عَرَضٌ في المَوْصُوف مُلَازِمٌ لَهُ، فَكَيْفَ إذَا كانَ الوَصْفُ بالمَصْدَر الذي تَقَدَّمَ أَنَّهُ يَكُونُ حَيْثُ كانَ المَوْصُوفُ مَخْلُوقًا على صِفَتِه مَجْبُولًا عَلَيْها؛ فَـ(إمام عَدْل) وَصْفٌ يُفْهَمُ مِنْهُ الأَئِمَّةُ الذينَ كُلُّ واحِد مِنْهُمْ مَخْلُوقٌ على العَدْل مَجْبُولٌ عَلَيْه، لَا كُلُّ واحِد مِنَ الأَئِمَّة حَلَّ العَدْلُ فيهِمْ بَعْدَ تَرْوِيضٍ لِلنَّفْس وإكْرَاهٍ لَهَا عَلَيْه؛ لِأَنَّ الإنْسَانَ مَيَّالٌ إلى الشَّرِّ وَالظُّلْم بِطَبْعِه؛ وهُوَ ما يَفْرِضُهُ عَلَيْه حُبُّ الذَّات؛ فَلَا يَكُونُ مُحِبًّا للخَيْرِ

وَالعَدْلِ إلَّا بَعْدَ تَرْويضِ النَّفْسِ وتَقْنينِ حُبِّه لذَاته؛ وَهُوَ ما يَعْني أَنَّه لا يَكُونُ مَجْبُولًا على الخَيْرِ وَالعَدْلِ إلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ سُبْحانَهُ.

الثانية: ما تَقَدَّمَ قَبْيلَ كَلمات يَكْشفُ بِأَتَمِّ الوُضُوحِ أَنَّ وَصْفَ النَّكرَةِ بالمَصْدَرِ أَكْثَرُ تَقْرِيبًا لَهَا مِنَ المَعْرِفَةِ مِنْ وَصْفِها بالصِّفَةِ الصَّرِيحَةِ؛ لتَمَحُّضِ الدَّلَالَةِ حِينَئِذٍ على الاخْتِصَاصِ؛ وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الوَصْفَ هُنا خَصَّ مَوْصُوفَهُ بِدائِرَةٍ مَعْرُوفَةٍ هِيَ دائِرَةُ العِصْمَةِ المَجْبُولَةُ على الخَيْرِ وَالعَدْلِ.

وَواضِحٌ أَنَّ الوَصْفَ بالمَصْدَرِ في هَذَا الحَديثِ قَدْ بَلَغَ بِمَوْصُوفِه مَرْتَبَةَ التَّعْرِيفِ، وَلَمْ يَبْقَ ثَمَّةَ فَرْقٌ بَيْنَ وُرودِ هَذَا التَّعْبِيرِ المَعْرِفَةِ نَكِرَةً وَوُرُودِه مُعَرَّفَ اللَّفْظِ وَالمَعْنى، إلَّا أَنَّ وُرُودَهُ مُعَرَّفَ اللَّفْظِ وَالمَعْنى؛ يُحَدِّدُ شَخْصَ الإمامِ العَدْلِ، أَمَّا فَائِدَةُ وُرُودِهِ نَكِرَةً؛ فَتَعْرِيفُ العُنْوانِ وَشُمُولِ جَمِيعِ أَفْرادِهِ المُعَيَّنِينَ المَعْروفِينَ.

الثالثة: أَنَّ مَعْنى العَدْلِ كَوَصْفٍ للإمامِ، لَا يَتَّضِحُ حَتَّى يَتَّضِحَ مَعْنى ضِدِّهِ الظُّلْمِ المَنْفِيِّ عَنِ المُتَلَبِّسِ بِهِ أَنْ يُجْعَلَ إمَامًا؛ وَهُوَ ما وَرَدَ تَصْرِيحًا في جَوابِ اللَّهِ تَعالى نَبِيَّهُ إبْراهِيمَ، إذ قَالَ لَهُ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البَقَرة: ١٢٤)، وَوَرَدَ في التَّفْسِيرِ أَنَّ الظُّلْمَ في هَذِهِ الآيَةِ ((يَعُمُّ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِمُخَالَفَتِه للْحَقِّ))،[٢٣] وَبِذَلِكَ يَشْمَلُ هَذَا الظُّلْمُ: ((مُطْلَقَ مَنْ صَدَرَ عَنْهُ ظُلْمٌ مَا، مِنْ شِرْكٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُ في بُرْهَةٍ مِنْ عُمُرِهِ، ثُمَّ تابَ وَصَلَحَ))[٢٤].

وَعَلَيْهِ؛ يَتَجاوَزُ مَفْهُومُ العَدْلِ هُنا عَدَمَ ظُلْمِ الرَّعِيَّةِ، إلى مَعْنًى أَسْبَقَ تَحَقُّقًا في النَّفْسِ التي تَنْعَمُ بِعَدالَةِ صَاحِبِها بِتَجْنِيبِهِ إيَّاها الشِّرْكَ وَالمَعْصِيَةَ؛ وَهُوَ ما يُعْطِي الغَزْوَةَ وَغَيْرَها مِنَ العِباداتِ مَعَهُ بُعْدًا رُوحِيًّا يَزِيدُ مِنْ أَجْرِها؛ لِمَا يَمْنَحُهُ عَدَمُ اقْتِرافِ الظُّلْمِ مِنْ يَقِينٍ يُوقِفُهُ على مَلَكُوتِ الأَشْياءِ[٢٥].

وَإِذَا كَانَ هَذَا الوَصْفُ قَدْ أَخْرَجَ مَوْصُوفَهُ مِنْ عُمُومِ التَّنْكِيرِ وَبَلَغَ بِهِ مَرْتَبَةَ التَّعْرِيفِ، فَكَذَلِكَ المَوْصُوفُ؛ لَهُ مِنْ قَرِيبِ فَضْلُ اخْتِصَاصٍ على صِفَتِه المَصْدَرِ؛ إذْ بِوُجُودِ المَوْصُوفِ (إمامٍ)؛ تَبَيَّنَ المَحَلُّ الذي تَكُونُ صِفَةُ العَدالَةِ جَوْهَرًا فِيهِ مِنْ ثَلَاثَةِ وُجُوهٍ مُتَداخِلَةٍ:

أَوَّلُها: أَنَّهُ اخْتَصَّها بِأَنْ جُبِلَ عَلَيْها وَكَانَتْ سَبَبًا في وُجُودِه، كَمَا كَانَ الكَذِبُ سَبَبًا في

وُجُودِ الدَّمِ على قَمِيصِ نَبِيِّ اللَّهِ يُوسُفَ، فَجاءَ النَّعْتُ مَصْدَرًا في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَجَاؤُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (يوسف: ١٨).

وثانيها: عَدَمُ افْتِراقِهما بِحالٍ.

وثالثُها: أنَّ صِفَةَ العَدالَةِ بِمَفْهُومِها القُرآنيِّ المُتَقَدِّمِ اخْتُصَّتْ بِاخْتِيارِها شَرْطًا في مَوْصُوفِها؛ وبِزَوالِها يَرْتَفِعُ المَوْصُوفُ عَنْ مُسَمَّاهُ، وبِذَلِكَ يَتَبَيَّنُ أنَّ العَلاقَةَ بَيْنَ النَّعْتِ المَصْدَرِ ومَنْعُوتِهِ تَبادُلُ اخْتِصاصٍ.

المَطْلَبُ الثاني

النَّعْتُ السَّبَبِيُّ

لا يُسَمَّى النَّعْتُ سَبَبِيًّا إلَّا بِدَلالَتِهِ على مَعْنًى في شَيْءٍ مِنْ سَبَبِ المَوْصُوفِ يَتَعَلَّقُ بِهِ كَما تَقَدَّمَ؛ وهَذا يَعْنِي أنَّ هَذا القِسْمَ مِنَ النَّعْتِ عامِلٌ، مَعْمُولُهُ ذَلِكَ الشَّيْءُ المُتَعَلِّقُ بِالمَوْصُوفِ، كَما في قَوْلِنا: (حَظِيتُ بِأُسْتاذٍ غَزِيرٍ عِلْمُهُ)، وإنَّما تابَعَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ مَوْصُوفَها في الإعْرابِ ((حَتَّى صارَتْ كَأنَّها لَهُ؛ لِأنَّكَ قَدْ تَضَعُها في مَوْضِعِ اسْمِهِ، فَيَكُونُ مَنْصُوبًا ومَجْرُورًا ومَرْفُوعًا، والنَّعْتُ لِغَيْرِهِ))[٢٦]، كَما في: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ الكَرِيمِ أبُوهُ)، إذْ يُمْكِنُ إحْلالُ الصِّفَةِ مَحَلَّ مَوْصُوفِها فَنَقُولُ: (مَرَرْتُ بِالكَرِيمِ أبُوهُ)، والحالُ أنَّ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ المُرُورُ غَيْرُ صاحِبِ الصِّفَةِ، وإذا أمْكَنَ أنْ تَحُلَّ هَذِهِ الصِّفَةُ مَحَلَّ مَوْصُوفِها، فَحُلُولُها مَحَلَّ صِفَتِهِ أخَفُّ وأيْسَرُ[٢٧].

غَيْرَ أنَّهُ يُمْكِنُ بِتَأمُّلِ أمْثِلَةِ النَّعْتِ السَّبَبِيِّ تَقْسِيمُهُ إلى نَوْعَيْنِ:

أحَدُهُما: نَوْعٌ يَتَعَلَّقُ بِعَيْنٍ غَيْرِ المَوْصُوفِ مُرْتَبِطَةٍ بِهِ، كَما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥)، فَـ (أهْلُها) مُتَعَلِّقٌ بِالقَرْيَةِ، لَكِنَّهُ عَيْنٌ غَيْرُ القَرْيَةِ خارِجِيَّةٌ عَلَّقَتْهُ بِها عُلْقَةُ السَّكَنِ، وهَذا النَّوْعُ لَمْ يَرِدْ في كامِلِ الزِّياراتِ؛ فَلا نُطِيلُ وُقُوفًا عِنْدَهُ.

والنَّوْعُ الآخَرُ: نَوْعٌ يَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ في المَوْصُوفِ غَيْرِ خارِجٍ عَنْهُ، كَما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة: ٦٩)، فَـ(لَوْنُها) لَيْسَ عَيْنًا غَيْرَ المَوْصُوفِ، بَلْ هو عَرَضٌ فِيهِ لا يَفْتَرِقُ عَنْهُ.

والدَّلالَةُ على التَّخْصيصِ في هَذَا القسْمِ الثَّاني تَختَلفُ عَنْها في الأوَّلِ شَيْءَ اخْتلاف، يَتَبَيَّنُ بتحليلِ مثاله الوارد في كَاملِ الزِّيارات: إذ رُوِيَ عَنْ أَحَد أَصْحَاب الإمام أَبي عَبْد اللَّه الصَّادق (صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْه) أَنَّهُ قَالَ: ((سَأَلْتُ أَبَا عَبْد الله عليه السلام فَقُلْتُ لَهُ: جُعلْتُ فداكَ، ما لمَنْ زارَ قَبْرَ الحُسَيْنِ عليه السلام وَصَلَّى عنْدَهُ رَكْعَتَيْنِ؟ قَالَ: كُتبَتْ لَهُ حَجَّةٌ وَعُمْرَةٌ. فَقُلْتُ لَهُ: جُعلْتُ فداكَ، وَكَذَلكَ كُلُّ مَنْ أَتى قَبْرَ إمامٍ مُفْتَرَضٍ طَاعَتُهُ؟ قَالَ: وَكَذَلكَ كُلُّ مَنْ أَتى قَبْرَ إمامٍ مُفْتَرَضٍ طَاعَتُهُ))[٢٨].

ومَعْلومٌ أَنَّ الصِّفَةَ هُنا تَعلَّقَتْ بشَيْءٍ هُوَ منْ لَوازمِ المَوْصُوف؛ فَالطَّاعَةُ صفَةٌ في الإمام مُفْتَرَضَةٌ على النَّاس؛ وَهَذَا يَعْني أَنَّ المَوْصُوفَ بالنَّعْتِ السَّبَبِيِّ مَعْمُولُهُ في الدَّلالَة الظَّاهرَة، وَمَوْصُوفُهُ في الدَّلَالَة العَميقَة؛ وبذَلكَ تَتَعمَّقُ دَلَالَتُهُ على التَّخْصيص، وكَما يَأْتي:

١- مرَّ في كَلَام سيبَوَيْه أَنَّ الصِّفَةَ وَمَوْصُوفَهَا يَكُونان كَأَنَّهُمَا اسْمٌ واحدٌ، وكَذَلكَ الشَّأْنُ مَعَ النَّعْتِ السَّبَبِيِّ؛ فَـ (إمَامٍ مُفْتَرَضٍ طَاعَتُهُ) خَصَّصَ الكَلامَ بدَائرَة الأَئمَّة الذينَ كُلُّ إمامٍ منْهُمُ افْتُرضَتْ طَاعَتُهُ، وَلَيْسَ كُلَّ مَنْ تَسَمَّى إمَامًا.

٢- إنَّ ما ذُكرَ الآنَ يُشيرُ إلى تَقْريبِ النَّعْتِ منْعُوتَهُ منَ التَّعْريف، بَلْ إنَّ الاسْتعَانَةَ بالسِّياق الخَارجيِّ تَكْشفُ عَنْ بُلوغِ النَّعْتِ بمَنْعُوتِه مَرْتَبَةً أَعْلى منَ التَّخْصيص؛ بإيصَاله مَنْعُوتَهُ إلى مُستَوًى منَ المَعْرفَة؛ مَا دَامَ الأَئمَّةُ المُفْتَرَضَةُ طَاعَتُهُمْ مُعيَّنينَ مَعْرُوفينَ.

٣- إنَّ دَلالَةَ هَذَا الوَصْف العَميقَةَ التي تَجلَّتْ في تَوَجُّه الصِّفَة إلى مَوْصُوفها؛ لَكَاشفَةٌ عَنْ أَنَّ حَذْفَ المَوْصُوف وَإحْلالَ الصِّفَة محلَّهُ غَيْرُ مُناسبٍ هُنا؛ لمَا يَتَمَخَّضُ عَنْهُ منْ تَعْميمٍ غَيْرِ مُرادٍ في هَذَا الحَديث.

وَعَدَمُ المُناسَبَة هَذه تَكُونُ أَكْثَرَ ظُهُوراً إذَا بَحَثْنا عَنِ الدَّلالَة المحْوَريَّة في هَذَا التَّعْبير: أَهيَ في (مُفْتَرَضٍ طَاعَتُهُ)؟ وَغَيْرُ خَافٍ ما يُضْفيه هذا الوَصْفُ منْ تَخْصيصٍ على مَوْصُوفه، أَمْ هيَ في (إمامٍ) المَوْصُوف الذي ما عُلمَ تَخْصيصُ الكَلام بالأَئمَّة لَوْلاهُ ؟.

المَطْلَبُ الثالثُ

النَّعْتُ بالجُمْلَة

منْ أَحْكَام النَّعْتِ بالجُمْلَة أَنْ تَرِدَ الجُمْلَةُ بَعْدَ النَّكرَة، لأَنَّهَا تُؤَوَّلُ بنَكرَةٍ[٢٩]. وَلكَيْ يُتاحَ

لَهَا الإعْرَابُ صفَةً؛ لا بُدَّ لَهَا أَنْ تَشْتَمِلَ عَلى ضَمِيرٍ يَعُودُ على المَنْعُوتِ، ظَاهِرًا أَوْ مُقَدَّرًا أَوَّلًا، وَأَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً ثانِيًا[٣٠]. ولَمْ يَكُنْ قَلِيلًا حُضُورُ الجُمْلَةِ صِفَةً في كامِلِ الزِّيارَاتِ، وَلا سِيَّمَا الجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ.

(أ) النَّعْتُ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ:

حِينَ يَكُونُ مُبْتَدَأُ الجُمْلَةِ اسْمًا تُسَمَّى اسْمِيَّةً، وَإِذَا كانَتِ الجُمْلَةُ اسْمِيَّةً؛ كانَ لِدَلَالَتِها أَنْ تَقْتَصِرَ في الأَصْلِ على ثُبُوتِ المُسْنَدِ لِلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فحسب، ولا تتعدَّى ذلك إلى الدَّلالَةِ على الحُدُوثِ أَوِ الاسْتِمْرَارِ[٣١].

وَفِي كامِلِ الزِّيارات مَقْطَعٌ دُعائِيٌّ في زِيارَةٍ مِنْ زِيارَاتِ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ طَوِيلَةٍ، أَتى الوَصْفُ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ فيه دالًّا على ثُبُوتِ المُسْنَدِ لِلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بَعِيدًا عَنِ الدَّلالَةِ على الحُدُوثِ، جاءَ فيه: ((وَقَدْ أَمْهَلْتَ الَّذِينَ اجْتَرَؤُوا عَلَيْكَ وَعَلَى رَسُولِكَ وَحَبِيبِكَ، فَأَسْكَنْتَهُمْ أَرْضَكَ، وَغَذَوْتَهُمْ بِنِعْمَتِكَ، إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ، وَوَقْتٍ هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ، لِيَسْتَكْمِلُوا الْعَمَلَ الَّذِي قَدَّرْتَ، وَالْأَجَلَ الَّذِي أَجَّلْتَ، لِتُخَلِّدَهُمْ فِي مَحَطِّ وَوَثَاقٍ وَنَارِ جَهَنَّمَ وَحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ))[٣٢].

وَهَذَا المَقْطَعُ وَرَدَ في سِياقِ ذِكْرِ عَظِيمِ ما أَقْدَمَ عَلَيْهِ قَتَلَةُ سِبْطِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَالمَفْجُوعُ المَوْجُوعُ بِمَا حَلَّ بِإِمامِه؛ يُناسِبُ حَالَهُ أَنْ يُذَكِّرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ وَلَا يُهْمِلُ، وَلاسِيَّما مَعَ قَتَلَةٍ لَمْ يَرْعَوْا لِنَبِيِّهِمْ حُرْمَةً تُذْكَرُ.

وَمِثْلُ هَذَا السِّياقِ يُناسِبُهُ أَنْ يَتَضَمَّنَ وَصْفًا يَدُلُّ على ثُبُوتِ العَذَابِ لِمَنْ أَقْدَمَ على مِثْلِ تِلْكَ الجَرِيمَةِ، وَيَتَّضِحُ ذَلِكَ في:

١- تَعْبِيرِ (إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ):

فَهُنا مَوْصُوفٌ نَكِرَةٌ خُصِّصَ بِجُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ وَقَعَتْ صِفَةً لَهُ؛ لِيُفِيدَ دَلَالَةً مُرَكَّبَةً مِنْ مَعْنَيَيْنِ، أَحَدُهُمَا: ثُبُوتُ المُسْنَدِ (بَالِغُوهُ) لِلْمُسْنَدِ إِلَيْهِ (هُمْ) ثُبُوتًا حَتْمِيًّا، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَوانَهُ.

وَالآخَرُ: أَنَّ ثَمَّةَ أَجَلًا مَخْصُوصًا بِهِمْ؛ دَلَّ عَلَيْهِ وُقُوعُ (أَجَلٍ) مَوْصُوفًا نَكِرَةً يُخَصِّصُهُ الوَصْفُ وَيُقَرِّبُهُ مِنَ المَعْرِفَةِ، وَلا يَكْتَفِي بِتَوْضِيحِه، كَمَا في المَوْصُوفِ المَعْرِفَةِ، وَلا رَيْبَ في أَنَّ

مَجيءَ صفتِه جُمْلَةً اسْميَّةً دالَّةً على الثُّبوت؛ يُعيِّنُ ذلكَ الأَجلَ ويُخصِّصُهُ.

والمَعْنى القُرآنيُّ للأَجلِ يَعْضُدُ هذا الفهْمَ؛ ذلكَ أنَّه وَرَدَ في القُرآنِ دالًّا على الخَواتيمِ والنِّهاياتِ، منْ ذلكَ آجالُ الأُممِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ (الأعراف: ٣٤)؛ وهُوَ يَعْني أنَّ أَجلَ هؤُلاءِ القتَلَةِ نهايَتُهُمْ.

٢- تَعْبيرِ (ووَقْتٍ هُمْ صائِرونَ إِلَيْهِ):

والكَلامُ على التَّخْصيصِ في هذا التَّعْبيرِ هُوَ الكَلامُ في سالفِه، إلَّا الفَرْقَ بَيْنَ (أَجَلٍ) و(وَقْتٍ)؛ فَقَدْ تَبيَّنَ أنَّ لَهُمْ أَجلًا هُوَ نِهايَتُهُمْ وخاتِمَتُهُمْ؛ فـ(هُمْ بالِغُوهُ)، فما الوَقْتُ الذي (هُمْ صائِرونَ إِلَيْهِ)؟

في القُرآنِ الكَريمِ وَرَدَ الوَقْتُ والمُشْتَقَّاتُ المُرْتَبِطَةُ بِهِ لثَلاثَةِ مَضامينَ، هيَ: القيامَةُ، واليومُ المَعْلُومُ، ولِقاءُ اللَّهِ، أمَّا القيامَةُ، فَمِنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الأعراف: ١٨٧) وهُوَ مَعْنًى مُحْتَمَلٌ هُنا، بَلْ هُوَ أَوَّلُ المَعاني المُتَبادِرَةِ؛ لِما في يَوْمِ القيامَةِ منْ حِسابٍ وإِثابَةٍ وعِقابٍ.

وأَمَّا اليَوْمُ المَعْلُومُ، فَوارِدٌ في قَوْلِه سُبْحانَهُ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾} (الحجر: ٣٧، ص: ٨٠)، وقَدْ فُهِمَ منْ هذِه الآيَةِ وسِياقِها الذي وَرَدَتْ فيه أَنَّ اليَوْمَ المَعْلُومَ ((آخرُ عُمرِ البَشَرِ العائشينَ في الأَرْضِ الجائزِ لَهُ[٣٣] إِغْواؤُهُمْ))[٣٤]، وهُوَ يَوْمُ الظُّهورِ أَوْ يَوْمُ الرَّجْعَةِ.[٣٥] وهَذانِ مَعْنَيانِ كالمَعْنَى الواحِدِ، وهُما مُحْتَملانِ في هذا الوَصْفِ غَيْرُ مُسْتَبْعَدَيْنِ.

وأَمَّا المَعْنَى الثَّالِثُ، فَلِقاءُ اللَّهِ في المَواطِنِ التي يُحِبُّ، كَما في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣) وهُوَ مَعْنًى لَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ منَ المَعاني المُرادَةِ في هذا الوَصْفِ.

وأَيًّا كانَ مَعْنى الوَقْتِ هُنا، فَهُوَ بَعْدَ أَجَلِهِمْ؛ يَصيرُونَ إِلى وَقْتٍ يُلاقُونَ فيهِ حِسابَهُمْ وأَلْوانَ العَذابِ.

وبِذلكَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ لِهؤُلاءِ القَتَلَةِ أَجلًا مَخْصُوصًا بِهِمْ يُنْهي وُجُودَهُمْ، ووَقْتًا مَخْصُوصًا

بِهِمْ (هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ)، صَيْرُورَةً لَا مَفَرَّ مِنْهَا وَإِنْ خَفِيَ عَلَيْهِمْ زَمَانُ حُدُوثِهَا.

(ب): النَّعْتُ بِالجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ:

كَثْرَةُ الوَصْفِ بِها في كاملِ الزِّيارَاتِ أَمْرٌ وَاضِحٌ؛ وَلَعَلَّ مِنْ أَسْبَابِهِ مُرُونَةَ الوَصْفِ بِهَا؛ فَهِيَ تَقَعُ وَصْفًا وَإِنْ تَصَدَّرَتْهَا الأَدَوَاتُ النَّحْوِيَّةُ. وَالجُمْلَةُ الفِعْلِيَّةُ تَدُلُّ على الحُدُوثِ[٣٦]، لِما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ دَلَالَةٍ على الزَّمَنِ.

وَيَتَنَوَّعُ، بِحُكْمِ هَذِهِ المُرُونَةِ، حُضُورُها وَصْفًا في كَامِلِ الزِّيارات، فَمِنْ مَوَارِدِ حُضُورِها صِفَةً غَيْرَ مَسْبُوقَةٍ بِأَدَاةٍ ما جاءَ في الدُّعاءِ عِنْدَ قَبْرِ حَمْزَةَ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ: ((اللَّهُمَّ، إِنِّي تَعَرَّضْتُ لِرَحْمَتِكَ بِلُزُوقِي بِقَبْرِ عَمِّ نَبِيِّكَ (صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِه)، لِتُجِيرَنِي مِنْ نَقِمَتِكَ وَسَخَطِكَ وَمَقْتِكَ، وَمِنَ الْإِزْلَالِ فِي يَوْمٍ تَكْثُرُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ وَالْمَعَرَّاتُ، وَتَشْتَغِلُ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا قَدَّمَتْ، وَتُجَادِلُ كُلُّ نَفْسٍ عَنْ نَفْسِهَا))[٣٧].

فَالمَوْصُوفُ هُنا نَكِرَةٌ خَصَّصَتْهُ الجُمْلَةُ الفِعْلِيَّةُ المُضَارِعِيَّةُ، بَلْ إِنَّ تَصَدُّرَ الفِعْلِ المُضَارِعِ (تَكْثُرُ) جُمْلَةَ الصِّفَةِ؛ بَلَغَ بِالمَوْصُوفِ مَرْتَبَةَ التَّعْرِيفِ؛ فَما يَدُلُّ عَلَيْهِ الفِعْلُ مِنْ حُدُوثٍ في المُسْتَقْبَلِ هُنا، وَما تَلاهُ مِنْ بَيانٍ لِمَشَاهِدِ ذَلِكَ اليَوْمِ؛ بَيَّنَ أَنَّهُ يَوْمُ القِيامَةِ.

وَمِنْ مَظَاهِرِ مُرُونَةِ الوَصْفِ بِالجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ، وُقُوعُ جُمْلَةِ قَصْرِ المُلَازَمَةِ صِفَةً، وَهُوَ ما يُعْطِي التَّعْبِيرَ عُمْقًا في الدَّلَالَةِ، حِينَ تَمْتَزِجُ دَلَالَتَا التَّجَدُّدِ وَالثُّبُوتِ.

وَثَمَّةَ طَائِفَةٌ مِنَ الأَحَادِيثِ في فَضْلِ مَسْجِدِ الكُوفَةِ، مِنْهَا قَوْلُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ في فَضْلِه، بَعْدَ أَنْ قَلَّلَ أَحَدُهُمْ مِنْ شَأْنِه بِقَوْلِه(إِنَّهُ مَسْجِدٌ تُصَلِّي فِيهِ النِّسَاءُ)، فَقَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ: ((ذَاكَ مَسْجِدٌ مَا أَتَاهُ مَكْرُوبٌ قَطُّ فَصَلَّى فِيهِ فَدَعَا اللَّهَ؛ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَعْطَاهُ حَاجَتَهُ))[٣٨].

وَبِتَأَمُّلِ سِيَاقِ الحَدِيثِ، يَظْهَرُ أَنَّ الكَلَامَ مَسُوقٌ لِضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ التَّخْصِيصِ غَيْرِ تَقْرِيبِ النَّكِرَةِ مِنَ المَعْرِفَةِ، وَكَما يَأْتِي:

١- مَسْجِدُ الكُوفَةِ محْوَرُ الكَلَامِ في هَذَا الحَدِيثِ؛ وَهُوَ ما يَعْنِي أَنَّ (مَسْجِدٌ) نَكِرَةٌ في اللَّفْظِ، مَعْرِفَةٌ في المَعْنَى؛ غَنِيٌّ عَنْ تَقْرِيبِ الوَصْفِ إِيَّاهُ مِنَ المَعْرِفَةِ.

٢- وَبِالوُقُوفِ عِنْدَ وَصْفِ الرَّجُلِ لِلْمَسْجِدِ، وَكَلَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، يَتَبَيَّنُ أَنَّ (مَسْجِدٌ) لَفْظٌ نُكِّرَ، لِيُخَصَّصَ، وَيُوصَفَ بِجُمْلَةٍ تُبَيِّنُ خَصَائِصَهُ التي تَدْعُو إِلَى الصَّلَاةِ فِيهِ.

٣- إنَّ وَصْفَ هَذه النَّكرةِ بجُمْلَة قَصْرِ مُلَازَمَةٍ وَهِيَ مَعْرِفَةٌ في المَعْنَى؛ يَتَمَخَّضُ عَنْهُ تَخْصِيصٌ عَميقُ الدَّلَالَةِ مِنْ جِهَتَيْنِ:

إحداهما: أنَّ رُكْنَيْ جُمْلَةِ القَصْرِ فعليَّان ماضيَةٌ أَفْعَالُهُما، تَدُلُّ عَلَى الزَّمَنِ الماضي لَفْظًا، وَعلى الحَاضِرِ والمُسْتَقْبَلِ المُسْتَمِرِّ مَعْنًى. وَبعبارَةٍ أُخْرَى: تَدُلُّ على مُطْلَقِ الزَّمَنِ بقَرِينَةِ المُلَازَمَةِ؛ فَالمَكْرُوبُ مَتَى ما أَقْدَمَ على هَذه الأَفْعَالِ في خُصُوصِ مَسْجِدِ الكُوفَةِ؛ تَحَقَّقَتِ النَّتِيجَةُ، ماضيًا كانَ زَمَنُ حُدُوثِها مِنْهُ أَوْ حاضِرًا أَوْ مُسْتَقْبَلًا.

وَلَعَلَّ دَلَالَةَ مُضِيِّ كُلِّ هَذه الأَفْعَالِ الثُّبُوتُ بَعْدَ الحُدُوثِ، ثُبُوتُ حُدُوثِ النَّتِيجَةِ (المَقْصُورِ عَلَيْهِ) للسَّبَبِ (المَقْصُورِ) بَعْدَ حُدُوثِ السَّبَبِ ثُبُوتَ مُلَازَمَةٍ؛ وَظَرْفُ كُلِّ ذَلِكَ مَسْجِدُ الكُوفَةِ.

والأُخرى: أنَّ نُزُولَ الصِّفَةِ وَمَوْصُوفِها مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ الوَاحِدِ؛ يَعْني عَدَمَ انْفِكَاكِ تِلْكَ المُلَازَمَةِ عَنْ مَسْجِدِ الكُوفَةِ؛ فَهِيَ مِنْ أَعْمَقِ خَصَائِصِهِ.

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

تَعَدُّدُ النُّعُوتِ

تَعَدَّدَتِ النُّعُوتُ في كَامِلِ الزِّيارَاتِ، مُفْرَدَةً أَحْيَانًا، وَمُتَنَوِّعَةً أَحْيَانًا أَكْثَرَ، وَالأَكْثَرُ في تَعَدُّدِهَا مُتَنَوِّعَةً اقْتِصَارُهَا عَلَى نَوْعَيْنِ: مُفْرَدٍ وَشِبْهِ جُمْلَةٍ، أَوْ مُفْرَدٍ وَجُمْلَةٍ.

أَمَّا المُفْرَدُ وَشِبْهُ الجُمْلَةِ، فَلوحِظَ تَقَدُّمُ شِبْهِ الجُمْلَةِ على المُفْرَدِ في عَدَدٍ مِنْهَا، عَلَى حِينِ كانَ المُفْرَدُ مُتَقَدِّمًا في المَوَاضِعِ التي جَمَعَتْ بَيْنَ المُفْرَدِ وَالجُمْلَةِ.

(أ) شِبْهُ الجُمْلَةِ وَالمُفْرَدُ

وَمِنْ أَمْثِلَتِه، ما رُوِيَ عَنْ أَبي جَعْفَرٍ البَاقِرِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: ((إنَّ زِيارَةَ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، تَعْدِلُ عُمْرَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مَبْرُورَةً))[٣٩].

وَالكَلَامُ هنا عَنْ زِيارَةِ قَبْرِ الرَّسُولِ الأَعْظَمِ وَما فِيها مِنَ الأَجْرِ، فَكَانَتْ (تَعْدِلُ حِجَّةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مَبْرُورَةً)، وَهُنا مَوْصُوفٌ لَهُ صِفَتَانِ:

إحداهما: (مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله): وَهِيَ صِفَةٌ ظَرْفٌ تَقَدَّمَتِ الصِّفَةَ المُفْرَدَةَ، وَلَا يَخْفَى ما

في هذا التقدُّم من بُعد دلالي يرقى بالصفة من العرضية اللازمة إلى الجوهرية؛ فكونها (حجةً مع رسول الله ﷺ) يؤثِّر في باطن هذه الحجة وجوهرها؛ فيكون لها تخصيص يميز جوهرها من غيرها من الحجج، وإذا تم هذا؛ تكون هذه الصفة هي المخصصة لنكرتها؛ وتكون الصفة الثانية ناتجة عن هذه الصفة.

والأخرى: (مبرورة): ولا ريب في أن كون الحجة مع رسول الله ﷺ جعلها مبرورة، ولا بد من ملاحظة أن صفات الأعمال العبادية إن لم تكن في موصوفاتها جوهرا، فهي تؤثر في جوهرها في نفس مؤديها ووجوده.

أما معنى مبروريتها: فهو أنها((قبلت قبول العمل الصادق))[٤٠]، قبولا يوصل صاحبها بإحسان ربه ولطفه إلى التجاوز عن خطيئته[٤١].

ويشتد بهذا اللحاظ تخصيص النكرة (حجة) بصفتيها هاتين؛ لا إلى مرتبة التعريف بالعنوان أو ما بمعناه وحسب، بل إلى دائرة أخص؛ إذ ما كل من حج مع رسول الله ﷺ مؤهلا لتلقي الأثر الروحي وقبول حجه بالمعنى المتقدم.

(ب): المفرد والجملة

يتقدم المفرد الجملة وصفا في كامل الزيارات، ومن أغزر أمثلته معنى ما ورد عن الإمام الصادق في مقطع من زيارة لجده الحسين (صلوات الله عليهما)، يخاطبه فيه بقوله: ((كنت نورا في الأصلاب الشامخة، ونورا في ظلمات الأرض ونورا في الهواء، ونورا في السماوات العلى، كنت فيها نورا ساطعا لا يطفأ))[٤٢].

ودلالة التخصيص في هذا المقطع الزياري لا تقتصر على ما في وصف النكرة من تخصيص؛ بل ثمة تخصيص أعم من وصف النكرة وأسبق، هو ما ينبض به هذا المقطع من نورانية لازمت شخصية سيد الشهداء قبل وجوده في الدنيا، وما الجملة المخصصة فيها النكرة إلا تأكيد لتلك الخصوصية وتعميق.

على أن النكرة (نورا) التي تكررت في هذا المقطع حتى وصفت بصفتين في آخره، لم تكن مبهمة يكسوها الوصف تقربا من المعرفة بالتخصيص؛ وهو ما يتطلب عودا إلى سياق هذه الكلمات بحثا عن داعي هذا التنكير:

فَقَدْ سَبَقَ هَذِه الكَلِمَات سَلَامٌ عَلَى الحُسَيْنِ وتَعْظِيمٌ لمُصيبته، جَاءَ فيه: ((السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّه، وَابْنَ أَمِينِ اللَّه، وَابْنَ خَالِصَةِ اللَّه، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّه، إِنَّا للَّه وَإِنَّا إِلَيْه رَاجِعُونَ؛ مَا أَعْظَمَ مُصِيبَتَكَ عِنْدَ جَدِّكَ [أَبِيكَ] رَسُولِ اللَّه ﷺ، وَمَا أَعْظَمَ مُصِيبَتَكَ عِنْدَ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ (عزَّ وَجَلَّ)، وَأَجَلَّ مُصِيبَتَكَ عِنْدَ الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَعِنْدَ أَنْبِيَاءِ اللَّه وَرُسُلِه [عِنْدَ رَسُولِ اللَّه]، السَّلَامُ مِنِّي إِلَيْكَ وَالتَّحِيَّةُ مَعَ عَظِيمِ الرَّزِيَّةِ عَلَيْكَ))[٤٣].

وَلَعَلَّ سِيَاقَ تَعْظِيمِ مُصِيبَةِ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ مَنْ ذُكِرُوا هُنَا، ثُمَّ فِي نَفْسِ قَارِئِ الزِّيَارَةِ بَعْدَ ذَلِكَ؛ يُرَجِّحُ أَنَّ التَّنْكِيرَ هُنَا أَفَادَ الأَلَمَ وَالحَسْرَةَ؛ وَكَأَنَّ جُمْلَتَيْ هَذَا المَقْطَعِ عَلَّلَتَا تِلْكَ العَظَمَةَ المَذْكُورَةَ لمُصِيبَةِ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ؛ وَهُوَ مَا يَعْنِي أَنَّ تَخْصِيصَ النَّكِرَةِ جَاءَ خِدْمَةً لِغَرَضِ الأَلَمِ وَالحَسْرَةِ؛ فَثَمَّةَ تَخْصِيصٌ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ هُنَا، لَا لِنَفْسِه.

فَالإِمَامُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ مَوَاطِنَ كَانَ فِيهَا الإِمَامُ الحُسَيْنُ نُورًا، عَادَ فَأَكَّدَ نُورَانِيَّتَهُ فِي تِلْكَ المَوَاطِنِ وَاصِفًا تِلْكَ النُّورَانِيَّةَ بِقَوْلِه:(كُنْتَ فِيهَا نُورًا سَاطِعًا لَا يُطْفَأُ)، لِتَتَعَاقَبَ عَلَى وَصْفِ المَوْصُوفِ صِفَتَانِ:

الأُولَى: سَاطِعًا، صِفَةٌ مُفْرَدَةٌ تَنْزِلُ وَمَوْصُوفَهَا مَنْزِلَةَ اسْمٍ وَاحِدٍ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَ((السِّينُ وَالطَّاءُ وَالعَيْنُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ارْتِفَاعِ الشَّيْءِ فِي الهَوَاءِ))[٤٤]، وَهَذَا تَخْصِيصٌ لِنُورِ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ بِصِفَةِ الارْتِفَاعِ التِي تُلَازِمُ الظُّهُورَ وَالبُرُوزَ؛ فَالنُّورُ كُلَّمَا زَادَ ارْتِفَاعًا؛ زَادَ امْتِدَادًا وَظُهُورًا، وَهِيَ سِمَةُ نُورِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الوُجُودِ، وَسُطُوعُ هَذَا النُّورِ يَعْنِي امْتِدَادَهُ لِكُلِّ القُلُوبِ الرَّاغِبَةِ فِي أَنْ تَسْتَنِيرَ بِه.

الثَّانِيَةُ: لَا يُطْفَأُ، صِفَةٌ أُخْرَى فِي(نُورًا) تَزِيدُهُ خُصُوصِيَّةً بِتَأْكِيدِهَا دَوَامَهُ كَنُورٍ سَاطِعٍ.

وَهَذِهِ الصِّفَةُ جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ مَنْفِيَّةٌ فِعْلُهَا مُضَارِعٌ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ، أَمَّا كَوْنُهَا مُضَارِعَةَ الفِعْلِ مَنْفِيَّةً بِـ(لَا)؛ فَيَأْخُذُ بِيَدِ الدَّلَالَةِ فِيهَا إِلَى الحَدَثِ المُسْتَمِرِّ؛ عَلَى أَنَّ تَصَدُّرَ الفِعْلِ المَاضِي أَوَّلَ الكَلَامِ على الصِّفَتَيْنِ (أي: كُنْتَ فِيهَا) مُشْعِرٌ بِأَنَّ الكَلَامَ عَنْ نُورَانِيَّتِه قَبْلَ بُزُوغِه فِي الدُّنْيَا. أَمَّا بِنَاءُ الفِعْلِ المُضَارِعِ لِلْمَجْهُولِ، فَهُوَ مُشْعِرٌ بِالعِنَايَةِ بِنَفْيِ فِعْلِ الإِطْفَاءِ أَيًّا كَانَ فَاعِلُهُ، الذي طُوِيَ لِلتَّرْكِيزِ على الحَدَثِ المَذْكُورِ.

وَبِذَا يَكُونُ وَصْفُ هَذِهِ النَّكِرَةِ بِصِفَتَيْنِ مُفْرَدَةٍ وَجُمْلَةٍ؛ قَدْ أَفْصَحَ عَنْ عَرَضَيْنِ لَازِمَيْنِ لَهُ حَقِيقَةً، لِكُلٍّ مِنْهُمَا دَلَالَتُهُ.

هوامش البحث

(١) اللمع في العربية: ٨٢.

(٢) شرح المفصل: ٢٣٢/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٣/ ٣٥٠.

(٤) ينظر: الأصول في النحو: ٣٣/٢، والكناش: ٢٢٧/١

(٥) الأصول في النحو: ٣٣/٢.

(٦) ينظر: الأصول في النحو: ٣٣/٢.

(٧) المصدر نفسه: ٢٣/٢.

(٨) المصدر نفسه: ٢٣/٢

(٩) شرح المفصل: ٢٣٢/٢.

(١٠) يُنْظر: المصدر نفسه: ٢٣٣/٢.

(١١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣٢/٢، والكناش: ١/ ٢٢٤

(١٢) يُنظَر: شرح المفصل: ٢٣٣/٢

(١٣) اللمع في العربية: ٨٢.

(١٤) ينظر: اللمحة في شرح الملحة: ٧٢٧/٢، وشرح المكودي على الألفية: ٢١٢.

(١٥) اللمع في العربية: ٨٢.

(١٦) ينظر: توجيه اللمع: ٢٥٩.

(١٧) كامل الزيارات: ١٦٩

(١٨) وكَلِماتُ النَّحْوِيِّينَ هَذِهِ نَقَلَها الدُكْتورُ فاضل السَّامَرَّائِيُّ، يُنْظَر: معاني النحو: ٣/ ١٩٠ - ١٩١.

(١٩) شرح الرضي على الكافية: ٢٩٤/٢

(٢٠) شرح المفصل: ٢/ ٢٣٧

(٢١) الخَصائِص: ٢٦٢/٣

(٢٢) يُنْظَر: الكناش: ٢٢٨/١.

(٢٣) آلاء الرحمن في تفسير القرآن: ١٢٤/١

(٢٤) الميزان: ١٧٤/١.

(٢٥) يُنْظَر: المصدر نفسه: ٢٧٣/١

(٢٦) كتاب سيبويه: ٢٢/٢.

(٢٧) يُنْظَر: المَصْدَرُ نفسُه: ٢٢/٢.

(٢٨) كامِلُ الزِّيارات: ١٦٠.

(٢٩) يُنْظَر: شرح الكافية الشافية: ١١٥٩/٣، واللمحة في شرح الملحة: ٧٣٠/٢، ومعاني النحو: ١٩٢/٣

(٣٠) يُنْظَر: شرح التصريح: ١١٥/٢ – ١١٦

(٣١) يُنظَر: علم المعاني، عبد العزيز عتيق: ٤٨.

(٣٢) كامل الزيارات: ٢٤٠ – ٢٤١

(٣٣) الضَّميرُ عائدٌ على إِبْلِيسَ.

(٣٤) الميزان: ١٢/ ١٦٠.

(٣٥) ينظَر: المصدر نفسه: ١٧٥/١٢

(٣٦) يُنظر: علم المعاني: ٤٩

(٣٧) كامل الزيارات: ٢٢ – ٢٣.

(٣٨)المصدر نفسه: ٣٢.

(٣٩) كامِلُ الزِّيارات: ١٥

(٤٠) مقاييس اللغة، مادةُ (بر): ١٧٦/١

(٤١) ينظر: التحقيق في كَلمات القرآن الكريم، مادة (بر): ٢٤٩/١

(٤٢) كامل الزيارات: ٢٣٠.

(٤٣) كامل الزيارات: ٢٣٠.

(٤٤) مقاييس اللغة، مادة (سطع): ٧٠/٣.

مَصَادرُ البَحْثِ وَمَرَاجِعُهُ

١. الأُصول في النحو: الأصول في النحو: ابن السراج (أبو بكر محمد بن سهل ت٣١٦هـ)، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.

٢. آلاء الرحمن في تفسير القرآن: البلاغي (محمد جواد بن حسن بن طالب ت١٣٥٢هـ)، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

٣. التحقيق في كلمات القرآن الكريم: حسن المصطفوي، ط١، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، طهران، ١٣٩٣هـ.

٤. توجيه اللمع: ابن الخباز(أحمد بن الحسين بن علي ت ٦٣٨هـ)، تحقيق د. فايز زكي محمد، ط ٢، دار السلام للطباعة والنشر، مصر، ٢٠٠٧م.

٥. الخصائص: ابن جني(أبو الفتح عثمان ت ٣٩٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٥٢م.

٦. شرح التصريح على التوضيح. الشيخ خالد بن عبد الله الأزهري (٩٠٥هـ) تحقيق: محمد باسل عيون السود، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.

٧. شرح الرضي على الكافية: لرضي الدين الاستراباذي (٦٨٨ هـ) تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، منشورات مؤسسة الصادق، طهران، جامعة قاريونس، ١٩٧٨ م.

٨. شرح الكافية الشافية: ابن مالك، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن مالك (ت٦٧٢هـ)، تحقيق د. عبد المنعم احمد هريدي، دار المأمون للتراث.

٩. شرح المفصل: ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ت ٦٤٣هـ)، قدم له د. أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٠. شرح المكودي على الألفية في علمي النحو والصرف: المكودي (أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح ت ٨٠٧ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥م.

١١. علم المعاني: ٤٩

١٢. كامل الزيارات: ابن قولويه القمي(أبو القاسم، جعفر بن محمد بن جعفر بن موسى بن مسرور ت ٣٦٧ هـ)، ط١، دار المرتضوية للنشر، النجف الأشرف، ١٣٩٨ هـ.

١٣. كتاب سيبويه: سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت ١٨٠هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨م.

١٤. الكناش في فَنَّي النحو والصرف: ابن شاهنشاه (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ت ٧٣٢ هـ)، دراسة وتحقيق د. رياض بن حسن الخوام، ط ١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ٢٠٠٠م.

١٥. اللمحة في شرح الملحة: ابن الصائغ (محمد بن حسن بن سِباع بن أبي بكر الجذامي ت٧٢٠هـ)، تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، ط ١،عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

١٦. اللمع في العربية: ابن جني، تحقيق: فائز فارس، دار الكتب الثقافية ، الكويت، ١٩٧٢.

١٧. معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي، مطبعة الحكمة، الموصل، ١٩٩١ م.

١٨. مقاييس اللغة: ابن فارس(أحمد بن فارس بن زكريا ت ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

١٩. الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٧هـ.